وظيفة الإنسان الحضارية
ارتباط تكوين الإنسان بوظيفته الحضارية

الدكتور محمد علي التومي (*)

إن الإنسان حسب المفهوم القرآني المؤيد بالمنطوق الموضوعي لواقع ملابسات تارخية إنما هو كائن بشري ، لا يمكن أن يكون إلا من صنع الله العجيب ، فهو آية من آياته الخارقة ، ومظهر من مظاهر إبداعه المحكم ومن هنا ليس بدعا أن يبدع الإنسان ما شهدنا ، ونشاهد من إبداعاته الجديرة بالتقدير والإعجاب .

ثم ان الإنسان كحقيقة واقعة ذو طبيبعة هي على غاية من الدقة ، والشفافية ، فهو من جهة أولى ذو (مادية) تشده الى متطلبات ذاتيتة شدا أوليا ، وهو من جهة ثانية ذو (غيرية) تدفعه الى التأقلم من مقتضيات وسطه الاجتماعي دفعا أساسيا ، وهو من جهة ثالثة ذو (وجدانية) لها من القدرة على الاستيعاب ما يجعلها تنطلق بمداركها الى الكشف عن خفايا المتناهي ، وتصل بملكاتها الطموح الى تصور ما يوجد خلف الحدود من مطلق لا متناه .

وعلى هذا الاعتبار ، صار الاقتصار في تحليل حقيقة واقع الانسان على الجانب المادي فقط ، أو على الجانب الروحي فقط ضربا من القصور غير مقبول من الوجهة الواقعية البحتة ،

(*) عضو الهيئة التدريسية سابقا في جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية.

علاوة على ما يسببه من خلل واهتزاز وارتباك في مجال الفكر والواقع.

ولا تتحقق فعالية شمولية التحليل هذه بمجرد الوصول إلى الاقرار: بأن الإنسان إنما هو "جسم وروح" أو "ظاهر وباطن" أو "حيوانية وعقلية " أو "تعلق بالأرض" و"ارتباط بالسماء" وإنما في اعتباره كلا متكاملا ، يشد بعضه البعض ويعني هذا أن ايجابية النظرة الشمولية تتمثل أساسا في توفير التوافق بين مختلف النوازع الموجودة في الانسان ومراعاة مقتضياتها التي تبدو أحيانا كأنها متعارضة ومتناقضة دون الاخلال بحق أي منها مهما كان موقعه ، ومهما كانت نوعيته .

إن الإنسان إذن ليس " جسما وروحا" فقط ، وإنما هو جسم محتاج إلى روح ، وروح محتاجة إلى جسم ، فهو الحصيلة المستخلصة من معطيات كل منها معا .

ونستخلص من ذلك ما يلى :

1 - كان الإنسان ، ولايزال بالرغم مما تحدثه الملابسات الزمانية ، والمكانية والإجتماعية من تغيرات مزودا جبليا بتلك الطبيعة الثنائية تحقيقا لتميزه عن بقية المخلوقات فلم يقتصر تكوينه على الجسمية أو البيولوجية حتى لا يكون حيوانا خالصا وحتى لا ينحصر تحركه ، وتطوره في مجال نسقه الغرِيزي فقط ولم يقتصر على روحانيتة حتى لا يكون كائنا ملائكيا ، لا يتحرك إلا وفق نسق جعلي محدد على نحو ما لاندرك حقيقته ، ولا نفقه ماهيته ولا يملك صاحبه القدرة على التصرف فيه ، ولا يستطيع الخروج عنه ، أو الإجتهاد حتى في

كيفيات تطبيقه ، لأن الإقتصار على أحد الجانبين لا يحقق الغرض من خلقه ، ولا يتفق وطبيعة الوظيفة الحضارية التي هي موضوع الإختبار ، وما يترتب عليه من فلاح أو خيبة .

2 - إن (إنسانية) الإنسان لا تتحقق ، إلا بما يتوفر للجانبين من تلاؤم وتوافق وانسجام ،فإذا تمرد أحدهما ، أو استبد ، أو طغى على حساب كبت الآخر ، أو القضاء عليه ، كان الإضطراب في المزاج ، والأختلال في التفكير ، والإرتباك في السلوك ، وحادت الوظيفة عن تنفيذ مشروعاتها ، وابتعدت عن تحقيق أهدافها القريبة والبعيدة .

3 - إن العمل التربوي الذي يتحمل مسؤولية إيجاد الوفاق والتلاحم بين الجانبين ، صار بالضرورة جزءا لا يتجزأ من الوظيفة العمرانية ذاتها بوصفه عملا إعداديا ، واكتسابيا ، وكلما كان العمل التربوي أكثر فعالية ، كانت الوظيفة أشد أثرا ، وأبلغ نفعا ، وأوسع أفقا ، وأطول عمرا ، مع اعتبار النسبية التي تقتضيها ملابسات الزمان ، وأحوال المكان ، وأوضاع الإجتماع في القصد والمنهج والتنفيذ والحصيلة .

الإنسان إنسان بوظيفته الحضارية .

من المسلم به بداهة ، أن أهمية الإنسان إنما تتمثل في كونه مكلفا بوظيفة حضارية ، إذ إن هذه هي التي تبرز تميزه ، وتجسم خصوصيته ، ونظهر مهارته في بسييير شؤون نفسه ، وتبين قدرته على تنظيم إدارة مجتمعه ، وتثبت في نفس الوقت وبصورة واقعية أن لا تعارض ، ولا تضادد ألبته بين المادة والروح ، وأن المادة لم تجعل إلا لخدمة الروح ، وأن الروح لم

تجعل إلا لحماية المادة .

وقد ألمع القرآن الكريم إلى أن وجود هذه الوظيفة ضروري حين قال : " أفحسبتم أنما خلقناكم عبثا " (1) .

إن هذه الآية قد تضمنت استفهاما إنكاريا عن حسبان أن يكون الناس قد خلقوا عبثا من غير أن يكون لوجودهم أي مسؤولية ، ولحياتهم أي غاية .

ويقتضي هذا الأسلوب : أن الإنسان إنما خلق على هذه الأرض ، ليقوم بوظيفة ، تتناسب عظمتها مع ما تميز به من مؤهلات أولا ، وتتلاءم من حيث التقدير مع درجة التكريم الذي خظي به ثانيا ، وتثبت للعيان : أن الله تعالى كان حكيما في تكليفه الإنسان بهذه الوظيفة ثالثا .

وإذا أمعنا النظر في هذه الجملة الكريمة (إني أعلم ما لا تعلمون) التي جاءت تعقيبا على استفهام الملائكة الإستفساري القائل : (أتجعل فيها من يفسد فيها ، ويسفك الدماء ...)(2) نرى : أنها تومئ إلى شيئ عظيم في ذات الإنسان ، كان قد غاب عن مدارك الملائكة التي لا نعلم عن طبيعة قدرتها شيئا وهو :

أولا : إن الإنسان قد وهب إلى جانب طاقته المادية التي يمكن أن يصدر منها الشر ملكة ذهنية فائقة ، لها من القدرة على الفهم ، والدرس والتعمق والكشف ، والإستنباط ،

---

(1) المؤمنون :115

(2) البقرة : 3

والإفتراض ، والتصور والتخيل ما يدعو إلى الإعجاب فعلا ، فهو بهذه القوة غير محدود الإستعداد ولا محدود الرغائب ولا محدود العمل ، فهو على ضعف أفراده ، بتصريف بمجموعه في الكون تصرفا لا حد له (1) ، جعل منه سلطان الأرض ومدبر أمورها ، ومنظم شؤونها بدون منازع .

ثانيا : إن الإنسان قد تأهل بموجب تلك القوة الذهنية إلى تحمل أعباء وظيفة هامة ، هي :

أكبر من أن تصور ضخامة موضوعها كلمات ، وهي أعظم من أن يستوعب أبعاد آفاقها خيال ، ألم ينتدب ليكون المسؤول في الأرض ، والعقل المفكر والمخطط فيها ؟ إنه : " يقيم سنن " الله " ويظهر عجائب صنعه ، وأسرار خليقته ، وبدائع حكمه، ومنافع أحكامه " (2) وقد ظهرت آثار الإنسان في هذه الخلافة على الأرض ، ونحن نشاهد عجائب صنعه في المعدن ، والنبات وفي البر والبحر ، والهواء ، فهو يتفنن ، ويبتدع ، ويكتشف ويخترع ويجد ، ويعمل حتى غير شكل فجعل الحرن سهلا ، والماحل خصبا ، والخراب عمرانا ، والبراري بحارا أو خلجانا(3) وما أحدثه الإنسان هذه الأيام في مجال الإلكترونات من إنجازات رائعة ، وما حققه في عالم الفضاء من فتوحات تجعل البصر ينقلب خاسئا وهوحسير دليل على أنه أهل لما تحمل من أعباء الوظيفة .

ثالثا : " إن كون الإنسان معرضا فعلا إلى الوقوع في

---

(1)،(2)،(3) محمد رشيد رضا : تفسير المنار 260/1 .

التجاوزات ، وارتكاب الموبقات ، وانتهاك الحرمات ، والعبث بالمقدسات إنما هو انحراف خطير ، إلا أنه يحط من قيمة القدرة الإبداعية ، ولا يقلل من شأن الوظيفة العمرانية باعتباره من السلبيات التي لابد منها ، والتي يمكن معالجاتها وإصلاحها ، وبوصفه أيضا مما دخل فيما يقتضيه الإختيار من خيبة ، قال إبن عاشور في شرحه لمقولة السياق المذكورة : " أي أعلم ما في البشر من صنفات الصلاح ومن صفات الفساد ، وأعلم أن صلاحه منه المقصد من تعمير الأرض ، وأن فساده لا يأتي على المقصد بالإبصال ، وأن في ذلك كله مصالح عظيمة (1) . وما يستخلص في هذا المقام ما كنا قد أشرنا إليه وهو أن الانسان مزود بطاقات مادية وعقلية لا تقدر فعاليتها ، وأنه بمقتضى ذلك مكلف بوظيفة حضارية لا تحصى عظائمها .

أهمية هذه الوظيفة

لقد أشار القرآن إلى خطورة هذه الوظيفة فقال : " إنا عرضنا الأمانة على السموات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها وحملها الإنسان إنه كان ظلوما جهولا " (2) .

في الآية : استعارة تمثيلة لوضع شيء في شيء ، لأنه أهل له دون بقية الأشياء ، وعدم وضعه في بقية الأشياء لعدم بأهلها لذلك الشيئ ، فشبهت بحالة من يعرض شيئا على أناس ،

---

(1) ابن عاشور : التحرير والتنوير 125/22 .
(2) الأحزاب : 72 .

فيرفضة بعضهم ، ويقلبه واحد منهم على طريقة التمثيلية (1) .

ويستفاد من هذه الإستعارة التمثيلية : أن الإنسان إنما هو المؤهل وحده لتحمل هذه الأمانة ويفهم منها أيضا أن هذه الأمانة هي مسؤولية على غاية من الخطورة ، وكيف لا تكون خطيرة ، والحال : أن مايبدو للعيان أنه من أعظم الموجودات سعة ، وصلابة ، وتحملا ، رفض أن يتحمل عبءها إشفاقا على نفسه من ثقلها ، وامتنع عن قبول إلتزاماتها خوفا من تبعاتها !

وقد جاء في شأن تحديد المراد من الأمانة أقاويل عديدة ، من بينها أمانة الإيمان ، وأمانة العقل ، وأمانة ما يؤتمن على حفظه باعتباره من حاجات الإجتماع ، وأمانة الخلافة ذاتها(2).

وبشيء من التأمل في تلك المعاني ، نلاحظ أنها ، وإن اختلفت عباراتها ، فإنها متقاربة في مؤداها ، لأن كلها مما فطر عليه الإنسان ، ومما يحتاج إليه قيام الوجود الإجتماعي ويستفاد منها : أن للإنسان وظيفة ، وأن مما تقتضيه تلك الوظيفة :

أولا : أمانة الإيمان ، وأن مما تستوجبه بالضرورة قيام المجتمع الذي بوجوده تتحقق الحياة ، ويقام السلطان ، ويتم النظام ، وتظهر فعالية الإيمان ، وينشأ التعمير ، والعمران ، ثم أن هذه المقومات كلها ، لا يتيسر وجودها إلا بقوة عقلية ،

---

(1) إبن عاشور : التحرير والتنوير : 125/22 .

(2) أنظر المرجع أعلاه :126/22 - 127 .

فاعلة مبدعة ، تعقل ذاتها ، وتعي استعدادها وتعرف أسرار ما يحيط بها حتى توفر أسباب الحياة ، وعوامل البقاء .

ثم إن هذه الوظيفة التي انفرد الإنسان بتحمل أعبائها و أشارت الآية السابقة إلى أنها شاقة ، وثقيلة ، ومتميزة ، إلا أنها أومأت أيضا إلى أن تحمله إياها لم يكن عشوائيا ، ولا اعتباطيا ، وإنما كان تحملا عن علم ، وحكمة ، وإرادة ، وتقدير، لأنه مبني على ما جبل عليه هذا الكائن البشري العملاق من استعداد ، وأهلية ، كفاءة ومتلائم مع ما فطر عليه على البذل ، والجهد ، والعطاء ، ومتقف مع مالديه من رغبة في التعلم ، والتطلع والنفاذ ، ومنسجم مع ماله من استطاعة على الحركة والإنطلاق ، والفعل .

مهام هذه الوظيفة

إذا أردنا أن نحدد إطار هذه الوظيفة تحديدا ، يمكننا من التعرف على مضامينها الحاجية والتحسينية ، نرى من المناسب أن نقسمها تقسيما منهجيا إلى مهمتين متلازمتين :

1 - المهمة التربوية :

من الواضح : أ من مستلزمات (الأمانة) أو (الخلافة) أو (التكليف) القيام بالمهمة الإيمانية . قال تعالى :

" وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون " (1) .

" الذي خلق الموت والحياة ليبلوكم أيكم أحسن عملا"(2).

---

(1) الذريات : 56 .

(2) الملك : 2 .

لقد قررت الآية الأولى : أن الله ما خلق الخلق إلا ليوحدوه في الألهية ويخصوه بالعبادة وإن لا يشركوا غيره من مخلوقاته مهما سما جنسه ، وعلا شأنه ، وعظم أمره .

وصرحت الثانية بأنه موضوع العبادة عمل ، ويفهم من أسلوب تعبيرها : أن الفلاح في إجادة ذلك العمل ، وإتقانه وإحسانه ، وأن الفشل في فساده ، وإعوجاجه ، وابتعاده عن تحقيق ما فيه خير للإنسان ، فردا كان ، أو جماعة .

وقد قال إبن عاشور معلقا على الآية الأولى : (الذاريات:56) : " فلا جرم أن الله أراد من الشرائع كمال الإنسان ، وضبط نظامه الإجتماعي في مختلف عصوره ، تلك حكمة إنشائه ، فاستتبع قوله : " ليعبدوه " أنه ما خلقهم إلا لينتظم أمرهم بوقوفهم عند حدود التكاليف التشريعية من الأوامر ، والنواهي ، فعبادة الإنسان ربه ، لاتخرج عن كونها محققة للمقصد من خلقه وعلة لحصولة عادة " (1) .

ومن هنا يظهر : أن العبادة لم تجعل إلا لتحقيق الغاية من الخلق ، وما الغاية من الخلق إلا قيام الإنسان بوظيفته التي هي : تعمير الأرض بما انطوى عليه الكون من مدخرات ظاهرة ، وباطنة ، ولما كانت هذه الوظيفة في حاجة أكيدة إلى إعداد نفسي واجتماعي ، كانت العبادة ضرورية باعتبارها قادرة على حماية الإنسان من التردي في الفساد الذي كثيرا ما يحول النعم والخيرات إلى عوامل دمار ، وهلاك .

---

(1) ابن عاشور : التحرير والتنوير : 27 - 27 .

2 - المهمة التعميرية :

ولما كانت العبادة ذات الهدف التربوي لا تتحقق إلا بالقيام بما يجسمها من أعمال ، كانت حياة الإنسان موضوعا جوهيرا ، وليس عرضيا ، ولا هامشيا ، إذ بدون هذه الحياة لا يتم اعتقاد ولايحصل تعبد ولاتظهر للتربية فعالية .

ولما كانت حياة الإنسان حسب نظرة إبن خلدون مركبة على صورة ، لايصح بقاؤها إلا بالغذاء ، ولما كانت قدرة الواحدة عاجزة عن توفير هذا القوت الذي هدي الإنسان إلى التماسة بفطرته ، كان لابد من اجتماع القدر (1) ، وكان لابد من الدخول أو الإنضمام ، أو الإنخراط في الحياة الإجتماعية .

ومن هنا ، كان من الطبيعي : أ يعتبر التكليف القرآني كل ما يدع من لوازم الإجتماع وأساسياته من مهام الإنسان الضرورية ، فالإلتزام ، والإنضباط والإنتظام ، والأخلاق ، والعمل ، والكد ، والإنتاج ، والإستثمار ، وحسن التوظيف ... وكل ما يتحقق به العمران والتعمير ، مهمة مقصودة أصالة وليست تبعا .

وعلى هذا الإعتبار ، نرى القرآن قد حرص على بيان : أن للإنسان مهمة اجتماعية ، حضارية ولم تخل أية واحدة من الإشارة إلى هذه الغاية تصريحا ، أو تلميحا ، فقد جاء على لسان صالح عله السلام ، قوله تعالى :

---

(1) أنظر ابن خلدون : المقدمة .

" هو أنشأكم من الأرض ، واستعمركم فيها " (1) .

ومعنى : أستعمركم : أنه أقدركم على عمارتها ، وأعدكم لاستثمار ما فيها ، وهيأكم للإستفادة بما عليها ، وفيها ، وحولها من منافع ، وخيرات ، قال إبن عاشور والإستعمار : الأعمار ، أي جعلكم عامرينها .. ومعنى الإعمار : أنهم جعلوا الأرض عامرة ، بالبناء ، والغرس ، والزرع (2) .

وهكذا كانت المهمة الحضارية داخلة دخولا أساسيا في أعمال الإنسان ، وهي موضوع التكليف وغايته لا محالة .

3 - العلاقة بين المهمة التعبدية والمهمة التعميرية .

إن السؤال الذي يفرض نفسه مالعلاقة بين المهمة التعبدية والمهمة الحضارية ؟

أو بعبارة أخرى : لما الحرص على ربط المهمة التعميرية بالمهمة التعبدية ؟

إذا عدنا إلى الجملة القرآنية نلاحظ : أنها احتلت موقعها بين قوله : " ياقوم : اعبدوا الله ما لكم من إله غيره ، وقوله فاستغفروه ثم توبوا إليه "

وقد علق إبن عاشور على هذا التوسط بقوله : " في موضوع التعليل للأمر بعبادة الله ونفي الهية غيره ، ثم قال : " ومن تفنن الأسلوب إن جعلت هذه النعم لأمرهم بعبادة الله وحده بطريقة جملة التعليل ، وجعلت علة أيضا للإمر بالإستغفار ،

---

(1) هود : 61 .

(2) ابن عاشور : التحرير والتنوير : 108/12 .

والتوبة بطريقة التفريع " (1) ومعنى هذا أن إنشاء الناس من الأرض ، وتعلق حياتهم بها ، وتمكينهم فيها ، وجعلها مصدر أقواتهم ، ومنبع منافعهم ، وميدان تسابقهم ، ومواطن أعمارهم وإبداعهم ، سبب كاف يدعو إلى شكر الله ، وعبادته ، والتقرب إليه بالإستغفار ، والتوبة .

ويلمع هذا إلى : أن العلاقة بين مهمة التعبد ، ومهمة القيام بالعمل التعمري علاقة جد وطيدة ، وقوية ، وتتضح هذه العلاقة ، وتتأكد بالنظر فيما يلي :

- وقال موسى " إن تكفروا أنتم ومن في الأرض جيمعا ، فإن الله لغني حميد " (2) .

- " يأيها الناس أنتم الفقراء إلى الله ، والله هوالغني الحميد" (3)

- " ومن يبخل ، فإنما يبخل عن نفسه ، والله الغني وأنتم الفقراء " (4) .

إن هذه الآيات تقرر بوضوح : أن الله لا يتضرر إطلاقا بما يعرض للأنسان من كفر وجحود ، وانحراف ، وعصيان ، وتمرد ، كما أنه لاينتفع أصلا بما يعبر عنه من اعتراف ، وطاعة وبما يظهره من عمل ، والتزام .

وبالجمع بين ما تقرره هذه الآيات ، وما تقرره آية "

---

(1) نفس المراجع : 12/107 - 108 .
(2) إبراهيم :11
(3) فاطر : 15 .
(4) محمد :38 .

الذريات:56 " من إن الله لم يخلق الخلق إلا ليعبدوه ، يوحدوه، وما كان قد أشار إليه إبن عاشور بصددها من أن العبادة ، لا تخرج عن كونها محققة للمقصد (1) نتبين : أن هذه العبارة التي من أجلها خلق الإنسان ، وسخر الكون لما كانت نتائجها التربوية والعملية التي من أجلها خلق الإنسان وسخر الكون ، لما كانت نتائجها التربوية والعلمية والسلوكية ، لاتنتفع بها الذات العملية لا من قريب ، ولا من بعيد بموجب الغني المطلق، علم باللزوم أنها ما فرضت إلا لفائدة الإنسان ، ولأجل تحقيق أمنه النفسي ، واستقراره الإجتماعي ، ولأجل توظيف مكسبه الحضاري بمقتضى احتياجه الثابت بالمشاهدة والواقع .

ونتبين من ذلك : أن الانسان بدون العبادة ، وبدون ما تدعو إليه من توجيهات تربوية ، وترشيدية ، لا يمكن أن يكون لحياته جدوى ، ولا لأعماله الحضارية فعالية ، لأن الحياة بدونها كثرا ما تنقلب إلى عبث ، وانحلال ، وفوضى ، ولأن المردود الحضاري بدونها كثيرا ما يتحول من كونه عامل إسعاد ، واستقرار ، وإحياء إلى كونه عامل إشقاء واضطراب وإماته .

ومن هذا المنطلق ، يمكن القول : بأن التقسيم بين المهمتين : المهمة التعبدية والمهمة التعميرية تقسيم اعتباري ، لإرتباط كل واحد منها بالأخرى ارتباطا موضوعيا وغائيا ، بحيث يتسنى للمأمل فيهما أن يلاحظ أن (الأولى) إنما وجدت لتضمن وقوع الثانية ، وترشد مسيرتها حتى يكون دورها فعالا ،

(1) أنظر : تحويل : (11) .

وإيجابا ، وإن (الثاني) إنما جعلت لتعبر عن حكمة الأولى وتمثل إرادتها ، وتجسم مصداقيتها .

4 - هدف العباد مدني :

معلوم : أن العبادة في نظر القرآن تعتمدعلى عقيدة : " أن إله إلا الله " وإذا تأملنا في هذا المبدأ ، نلاحظ أنه يحدث في الكائن الإنساني الذي اتخذه منهجا بقينيا شخصية متميزة ذات كيان مستقل ، حيز منفرد ، يرفض الطمس ، ويأبى الذوبان ، ويود التلاؤم ، ويرغب التأقلم ، ويحب الإنسجام ، ويسعى إلى الائتلاف ، ويميل إلى التوافق مع من يحيط به من أفراد (البيئة) ، أو (المجتمع) ، أو (الأمة) ، التي فطر على ألا يعيش إلا ذاخل حدودها ، وإلا ينشط إلا في خضم ما يعتمل فيها من ظواهر ، إيجابية كانت أو سلبية ، وإلا يكون لوجوده فعالية إلا في كنف ما ينشأ فيها من عوارض متلائمة تارة ، ومتنافرة أخرى ، وفيما يحدث لها من نمو ، وصعود ، أو هبوط وذبول .

وإذا تبعنا محتوى العيدة القرآنية بتدبر ، وهدوء ونظرة نافذة نتبين : أن ما فيها من تكاليف إيمانية ، وماتلزم به من ممارسة شعائر تعبدية ، وماتدعو إليه من توجهات سلوكية وتعاليم أخلاقية ، ووصايا تنظيمية ، وضوابط تعاملية إنما تهدف أساسا إلى تحقيق الحياة الكريمة للفرد ذكرا كان أو أنثى ، عربيا كان أو أجنبيا ، مسلما كان أوغير مسلم ، داخل كيانه الذاتي، ووسط هيكله الإجتماعي .

إن ما في القرآن من اعتبار أساسي للآخرة ، وما في الآخرة

من حساب وما ينشأ عن الحساب من جزاء إنما هو لتوفير الضمانات الكافية لتكون الحياة ذات هدف ، وذات فعالية ، وذات قيم حضارية ، وذات معاني فنية وأبعاد جمالية .

إن العبادة في نظر القرآن ليست عقيدة قلبية فحسب ، بل هي عقيدة حية ناشئة عن اقتناع ويقين ، وسلوك عملي يقظ ، فهي إيمان بأن لا إله إلا الله ، وما يترتب عليها لزوميا من تحرر من ضبابيات الأسطورة ، ومن تخلص من وهميات الخرافة ، ومن إنعباق من جبريات الألف والعادة ، إذ أنها بحكم كونها تقتضي : أن لا إذعان ، ولا تدلل ، ولا خضوع ، ولا استسلام ولا عبودية إلا لله مالك الملك ، فإنها تحدث الإعتزاز وتولد الإنطلاق وتصنع التحدي والمواجهة ، والإقدام بثبات ، وتواضع، وفي غير غرور ولا مرح ولا تكبر .

أولا : هي الصلاة ، ودعاء وذكر وصوم وحج وما تلزم به تلك الشعائر من تهذيب النفس وتربيتها وتزكيتها وتدريبها على فعل الخير واجتناب الشر وما تتطلبه من تقوى حيثما وجد الإنسان وإصلاح السيئة بالحسنة ومخالقة الناس بخلق حسن .

ثانيا : هي أمر بالمعروف ونهي عن المنكر متآت من معرفة دقيقة راسخة من مقاصد الدين الكلية والجزئية ، وصادر عن علم واع بسنن الله في الإجتماع والإقتصاد والسياسة ، والحرب والسلم والكون عموما .

ويتطلب هذا انتهاج طريقة تعتمد اللين وتتوخى الحكمة والقول بالتي هي أحسن وتنبذ الفضاضة والغلظة والجفاف ، وتتجنب الإنفعال والغضب والتهريج وتحسن البيان وتحدق

الحوار وتعطي لكل مقام مقاله اللائق به ، وتعرف متى تقدم هذا ، ومتى تؤخر ذاك ، وتؤخر ذاك ، تتقن ما يصلح لهذا ، وما يصلح لذلك .

ثالثا : هي مساواة ، وحرية ، وعدالة ، وتشاور ، وإعطاء لكل إنسان حقه الطبيعي والكسبي ، وتنافس في الخيرات ، وتسابق في الصالحات وتعاون ، وتضامن في السراء ، والضراء، وإبتعاد عن التنازع ، والتباغض ، وامتناع عن بخس الناس أشياءهم ، ونبذ للسب ، والشتم ، والقذف ، والرمي بما ليس في الناس ، وحب ، وتوادد ، وتعاطف ، وتراحم ، وتعاون وحماية لأغراض الناس ، وصيانة لأموالهم ، وأنفسهم وسمعتهم .

رابعا : هي عمل بناء ، وسعي متواصل لإصلاح الحال ، وإنشاء هادف ، وتنمية شاملة ، واستصلاح دقيق ، وتطوير عن دراسة ، وتخطيط وعزم على الخروج من الفقر ، والجهل ، والتخلف بما في الإمكان ، وتقدم ثابت رصين نحو الأفضل بما في الإستطاعة ، ورغبة ملحقة في إعادة الإعتبار إلى الأمة بإصرار ،وصبر ، ومصابرة ، وإذا كانت العبادة على النمو الذي قدمنا ، فهي ليسب ضد الحضارة ، بل هي الحضارة نفسها ، باعتبارها العامل الداعي إلى ترشيدها ، وتوظيفها التوظيف الذي يعمل على ترقية الناس فكريا ، ومنهجيا ، ومعيشيا ، وتنظيميا .

المهمة التعبدية ضرورة وجودية

كما قد تساءلنا : لما لم يقتصر وظيفة الإنسان على المهمة

العمرانية ؟ إن حصر مهمة الإنساني في " العمارة " وحدها منطق قاصر لأنه لم يكن متأتيا عن دراسة تحليلية شاملة ، ودقيقة للوجود الإنساني ، إذ من السهل أن يقال : إن الإلهية، ومتعلقاتها الضرورية قد ابتدعها الإنسان بسبب ظروف طبيعية غير ملائمة ، وبمفعول عوامل اجتماعية جائرة .

إن منطلقا كهذا ، وإن بدا لنفسه : أنه انقذ البشرية من الهاوية المظلمة التي تردت فيها وإن خيل لذاته : أنه حرر العقل الإنساني من عبودية الأسطورة ، وأعتقه من المنهج سلطاته ، وأوقعه في جبريات أشد قسرا ، وأقوى قهرا من التي تاه فيها قرونا طويلة .الميتافيزيقي ، فإنه واهم ، لأنه بهذا الإنخلاع غير المسؤول قد قيده ، وكبله ، وحد من إن الواقع التاريخي باعتباره حقلا تجريبيا ، قد أثبت أن خاصيات الوعي الإنساني يتمثل في نزوع " العقل " إلي التصور الشامل ، وانجذابه تلقائيا إلى التجريد المطلق ، إذ أنه - وإن لاحظ الواقع المرئي ، وتتبع مكوناته ، وعاين عناصر تركيباته ، وأهدى إلى خواصه ، وأدرك ما يوجد بين الموجودات الظاهرة والخفية من علاقات جدلية ومن ترابطات موضوعية ،تبدو فيما بينهما من تناظر ، وتفارق لا تتفاوت درجته حسبما بينهما من تقارب أو تباعد جنسا وفصيلة ، ووظيفة - فإن لم يقف عند ذلك الحد ، بل رأيناه ترضية لطموحه اللامحدود يطرح الإفتراض وراء الإفتراض ، ويلقي النظرة تلو النظرة ويدقق ، ويتعقب ، ويستنبط ، ويستنتج ، ويؤلف ، وينطلق من مشاهدة الجزئي إلى إدراك الكلي ، ويتجه من معرفة ما تحت العدسات

المكبرة إلى ما يحوي الكون من آفاق ، ويتجول من جس ما يسمعه المخبر التجريبي إلى محاولة فهم ، وضبط ما لا يسعه ، ويتخذ من المعلوم مسارات إلى تصور المجهول ، وينتقل من الوجود الحاضر وما عليه من تناسق ، وانتظام ، وإبداع إلى إثبات الوجود الفاعل ، والتدليل على وحدانية العلة الأولى ، وقدرتها البالغة على والإيجاد والإعدام " يأيها الناس إن كنتم في ريب من البعث ، فإنا خلقناكم من تراب ، ثم من نطفة ، ثم من علقة ، ثم من مضغة ، مخلقة ، وغير مخلقة لنبين لكم ، ونقر في الأرحام ما نشاء إلى أجل مسمى ، ثم نخرجكم طفلا ثم لتبلغوا أشدكم ، ومنكم من يتوفى ومنكم من يرد إلى أرذل العمر لكيلا يعلم من بعد علم شيئا " (1) .

هذا نموذج من النماذج التي عرضها القرآن ، وبالنظر فيه ، نلاحظ : أن القرآن دعا العقل البشري إلى توجيه عدساته الصقلية نحو ما يحوي المخبر الأكبر من مظاهر حسية واتخاذها منطلقات إلى إذراك بعض الموجودات الغائبة .

إن العقل البشري الباحث الطموح ، إذا تأمل في خلق الإنسان من " النطفة " التي كانت قد تكونت بمفعول الأغذية التي سبق أن تكونت بمفعول نباتات كانت هي بدورها قد نشأت بتمازج بين التراب والماء ، ثم تتحول هذه " النطفة " إلى " علقة " ثم من " العلقة " إلى " المضغة " ثم من المضغة إلى هيكل مكسو لحما ، ثم الإنتقال ما بعد " الأرحام " من طفل غض إلى

---

(1) الحج : 5 .

بلوغ الأشد ، ثم الموت أو التحول إلى أرذل العمر ، وما يعقبه من موت محقق ، ليدرك يقينيا أن الذي قدر على إنشاء تلك ، لقادر على إدجاع الروح من جديد إلى " العظام النخرة " لأن هذا الرجع هو بالنسبة لمفاهيمنا أبسط وأيسر من باب أولى .

ومما حوى المخبر الأكبر من موجودات جديرة بالنظر ، وحقيقة بأن تكون من الحوافز لإدراك ما في الغيب من حياة بعد الموت دون الوصول إلى معرفة كيفيتها ، وحقيقة كنهها .

" وترى الأرض هامدة ، فإذا أنزلنا عليها الماء أهتزت ، وربت ، وأنبتت من كل زوج بهيج ذلك بأن الله هو الحق ، وأنه يحي الموتى ، وأنه على كل شيء قدير ، وأن الساعة آتية لاريب فيها ، وأن الله يبعث من في القبور " (1) .

إن القرآن أحالنا على الأرض باعتبارها أقرب الموجودات إلينا ، وإذا دقق العقل الإنساني البحوث النظر فيها ، وفيما يطرأ عليها من تغيرات واضحة ، فهي تنتقل من حالة تكون فيها قاحلة ، جرداء وشاحبة حزينة " ميتة " إلى أخرى تكون فيها بهيجة ، مكسوة أعشابا خضراء ، مزادنة بأزهار ، أختلفت ألوانها ، وتنوعت روائحها ، فرحة ، راقصة بنباتاتها المنعشة ، طروبة بثمارها النافعة ، قلنا : إذا دقق النظر في التحول من الموت المحزن إلى الحياة المنعشة أستطاع أن يدرك : أن الأحياء من جديد بعد القبور أمر معقول وهو واقع لا محال .

إن العقل البحوث الذي حرص القرآن على تكوينه ،

---

(1) الحج : 5 - 7 .

وتوجيهه، وتربيته عند الناس بالنظر في الأنفس ، وفي الآفاق ، وفي التاريخ وإن كان لا ينكر أن عقيدة الإنسان الإيمانية ، قد تأشبت عبر عصورها المتعاقبة الطويلة بالأساطير إلى حد بعيد ، كما أنه لا ينكر بعض المناهج اللاهوتية كانت قد ساهمت مساهمة فعالة في تعطيل المدارك ، وتجميد الحركةالإنسانية ، فإنه بحكم إلتزامه بالموضوعية يعلم جيدا :

- أنه لا يلزم من انحراف الشيء عدم وجود الشيء ، لأن الشيء ماديا ، كان أو معنويا لا يمكن أن يتسرب وجوده إلى أذهاننا من فراغ .

- وأنه لا يلزم من فساد الطعام ، أو سخفه فساد المعدة على حد تعبير العقاد ، وقد أثبت البحث الموضوعي الجاد من خلال دراسته لتاريخ الحياة الإنسانية الفردية والإجتماعية .

إن الإنسان : " ذو نطق " وأنه ذو أسطورة " وأنه ذو خيال وأنه ذو تطور وأنه ذو حركة تارخية بطيئا حينا وسريعة حينا ، وإلى الإمام مرة وإلى الوراء مرة وأنه ذو تراث ثقافي واجتماعي متنوع الموضوعات ، ومتعدد الأغراض ، ومتباين الإشارات والإيحاءات وأنه فوق ذلك كله ذو عقيدة أو ذو دين " وأن الدين بقطع النظر عن سلامته ، أو انحرافه هو الطابع العام الذي وضع بصماته على كافة الأنشطة الإنسانية قديما وحديثا .

ثم أن " العقل الإنساني البحوث " لا يرضى أن يحكم على أن كل المناهج الدينية قد عاقب الحركة الإنسانية عن التقدم اعتباطا عن غير دراية ، وتحليل لأن ذلك ، لا يتلاءم والموضوعية ، ولا ينسجم ، والأمانة العلمية ، فالحركة

المحمدية كانت وفق منهج ديني ولكنها كانت تغييرا عقائديا ، وحدثا فكريا ، وثورة إجتماعية شاملة ، وهي كما قال توماس كارليل : " وخرجت رعاة الأمس تقتحم الأرض شرقا ، وغربا ، وتفتح باسم الدين الجديد ، وفي خلال القرن الواحد من الزمن أنها المعجزة لولاأنها حقيقة تارخية لقلت : أنها خرافة أو خيال لقد كانت صيحة محمد أشبه ما تمون بشرارة ملتهبة ، وقعت لا على كثبان كسولة من رمال الصحراء ، ولكن على جبال من البارود ، تفجرت مرة واحدة ، فعم نورها من هضاب الهند إلى سهول الأندلس " (1) .

ثم إن "العقل البحوث" في نظر القرآن يعترف بالمادة كواقع موضوعي ، ولكنه في نفس الوقت ينفذ إلى ماوراءها نفاذا ، لا يخرج الإنسان من واقعه على الأرض مادام فيه أولا ، ولا يفقده إنسانيته ، ولا يضطره إلى التنكر لمقتضيات وجوده المادي والنفسي والإجتماعي ثانيا ، ولا يدفعه إلى الكفر أو إلى ما يؤدي به إلى (تروحن) غير مقدور ، ولا يلقي به في (ترهين) مبتدع غير ميسور ثالثا ، ولا يقذف به في مواجيد ، وشطحات تغيب عن الحضور وتذيب الناسوت في لاهوت غير مفهوم .

إن هذا " العقل الإنساني البحوث " بحكم رسوخه في المعرفة الواقعية الواعية البعيدة عن الغفلة والنسيان ، والإهمال لواقع الإنسان يتبين بصورة يقينية أن النظام البديع الذي عليه الكون ، وأن هذه النواميس التي لا تتخلف ، لا يمكن بحال أن

(1) منبر الإسلام : ع : 2 س : 25 فبراير 1977 : 130 .

تكون حادثة عن صدفة ، لأنه يعرف الصدفة ، لأنه يعرف أن الصدفة بمقتضى بعدها عن القصدية تخبط خبط عشواء ، ولا يمكن أن يصدر عنها نظام متناسق لا يختلف .

ولا يمكن أن تكون ناتجة عن المادة ذاتها ، لأن يعلم : أن المادة بفقدانها الروح الإرادية عاجزة عن تنظيم نفسها ، ولا يمكن أن يكون الإنسان إلها بهذا العالم على الرغم من كونه أقدر المخلوقات ، لأنه أدرك تمام الإدراك أنه ضعيف بحكم أنه يولد ، وينمو ، ويرد إلى أرذل العمر ويموت وفق البيان الواقعي الحكيم : " الله الذي خلقكم من ضعيف ، ثم جعل من بعد ضعف قوة ثم جعل من بعد قوة ضعفا وشيبه " (1) .

ومن مؤثرات ضعف الإنسان الذي ضنع العجائب بقدرته العقلية وبماهرة يده " الصناع " أنه يفرح ، ويغتر ، ويطغى لمكاسب ينالها ، ولامتيازات يحققها ، ولسلطة يبلغها ، ويتألم ويتحسر ، ويبأس ، بأبسط شيئ بفقده ، ولأهون بلاء يمسه مصداقا للوصف الواقعي الصادق : " ولئن أذقنا الإنسان منا رحمة ، ثم نزعناها منه ، إنه ليؤوس كفور ، ولئن أذقناه نعماء بعد ضراء مسته ليقولن : ذهب السيئات عني ، إنه لفرح فخور"(2) .

إن العقل الإنساني البحوث بحكم كونه يتميز بكل ذلك ، وبحكم كونه يحسن وضع الشيء في الموضع اللائق به ، وبحكم

---

(1) الروم : 54 .

(2) هود : 9 : 10 .

عدم اعترافه بالآلهة التي تسعى بين الناس ، وانطلاقا كما بينا سابقا من أن الله ما خلق الكون عبثا ، أو تلهية ، أو لعبا ، وأنه خلق الإنسان ، وفضابه عما سواه من المجلوقات بما حباه به من قوة إدراكية ، وبما أودع فيه من قدرة على اكتسات المعارف ، وتحصيل العلوم يرى من الضروري أن يلتزم بما يظهر إعترافه بالحق المبين ، وأن يعمل بما يثبت أهليته للخلافة أو الأمانة وما تتطلب هذه من مظاهر الطاعة حتى يكون في مستوى التفضيل ، وفي مستوى حسن التصرف ، وحتى يكون على كفاءة بالغة في إدارة شؤون الأرض ، وشؤون الاجتماع ، وشؤون ما ينشأ عن أعماله الفكرية ، وتحركاته العملية من حضارة ، وعمران ، وتمدن .

وهكذا يتبين لنا : أن وجود التكاليف التعبدية ضرورة وجودية ، وهي القادرة وحدها على جعل العمل الانساني مثمرا، وعلى توجيه طموحاته نحو اكتساب الخيرات ، وجلب الصالحات ، وقد عبر عن هذه العلاقة المنطقية الافغاني : فقال " وبدون هذين الاعتقادين يقصد بأن العلم صانعا ، وأنه قدر للخير والشر جزاء ، لا تقرر هيأة للاجتماع الانساني ، ولا تلبس المدنية سربال الحياة ، ولا يستقيم نظام المعاملات ، ولا تصفو صلاة البشر من شائبات الغل ، وكدرات الغش" (1)

المهمة الحضارية مرتبطة بأسباب موضوعية

لم يكتف القرآن ببيان : أن المهمة العمرانية مرتبطة بالمهمة

---

(1) منبر الإسلام : عدد 2 سنة 35 ص 185 .

التعبدية من حيث أن الثانية لحماية الاولى من حيث التوجيه بل بين : أن لله سننا ثابتة في الاجتماع الانساني لا بد من احترامها ، والعمل بمقتضاها .

ان التفسير القرآني للتاريخ الذي يستمد من عرض القرآن لحوادث الماضي ، ومما تعرضت له الامم من قوة ونمو ، وضعف وانهيار " يعلق المسؤولية الكاملة في صياغة الحدث التاريخي، وصناعة الوقائع الحضارية على الانسان الفرد أو الجماعة"(1). طبق مضمون الآية القائلة : « وكل انسان ألزمناه طائره في عنقه } (2) .

ومما يؤيد هذا التفسير ما لاحظه : مالك بن نبي من قصور وعدم إطلاقية في الجدلية التاريخية الهيقلية " ونظرية " التحدي والاستجابة " لارنولد توينبي لعدم انطباقها على التحول الحضاري العملاق الذي نشأ في الجزيرة ، والواقع أن الحركة الاسلامية ما كانت لتفرض نفسها على الوجود ، وما كانت لتهيمن على ما وجد من حضارات عريقة أنذاك إلا بموجب التحدي الذي أحدثه " الايمان " والذي أيقن أصحابه بمقتضى ما نالوا من اعداد قرآني يرى : " أن لا تنشأ المسببات الا بأسبابها الموضوعية تبعا للمقولة الشهيرة القائلة : {أن السماء لا تمطر ذهبا ولا فضة } .

وقد عملت مدرسة : " عبده " على الاهتمام بهذه القضية

---

(1) عماد الدين خليل : التفسير الإسلامي للتاريخ : 188 .
(2) الإسراء :13 .

وركزت على بيانها وايضاحها لقد جاء تفسير المنار في المسألة: " الحادية عشرة " ما نصه : " ما ثبت بالقرآن و الوجدان من كون الانسان ذا قدرة وإرادة واختيار في أفعاله من الإيمان وكفر وخير وشر وصلاح وفساد وكل ما ذكر سننه في جزاء الناس على أعمالهم ... فهو مبني على هذه السنة (1) وفي نفس المسار ، نرى ابن باديس يعيب على النفوس المريضة ، والهمم الهابطة التي تعلل فشلها ، وإخفاقها في مواجهة متطلبات الحياة ، والتصدي بالسعي الجاد المثمر ، والكسب المستمر بأنه قضاء وقدر ، فقد قال أثناء تفسيره لآية : الاسراء: 18 من كان يريد العاجلة عجلنا له فيها ما نشاء لمن نريد وبعد ذكره لنظائرها : (هود 15) و (الشورى 20) قد أفادت هذه الآية كلها : أن الاسباب الكونية التي وضعها الله تعالى في هذه الحياة وسائل لمسبباتها موصلة بإذن الله من تمسك بها إلى ما جعلت وسيلة اليه بمقتضى أمر الله وتقديره ، وسننه في نظام هذه الحياة والكون ، ولو كان ذلك المتمسك بها لا يؤمن بالله ، ولا باليوم الآخر ولا يصدق المرسلين ومن مقتضى هذا : أن من أهمل تلك الاسباب الكونية التقديرية الالهية ، ولم يأخذ بها لم ينل مسبباتها ولو كان من المؤمنين وهذا معلوم ومشاهد من تاريخ البشر في ماضيهم وحاضرهم ، نعم لا يضيع على المؤمن أجر إيمانه ولكن جزاء عليه في غير هاته الدار كما أن الآخر لم يضع عليه أخذه بالأسباب ، فنال

(1) محمد رشيد رضا : تفسير المنار : 138/10 .

جزاءه في دار الاسباب وليس له في الآخرة إلا النار " (1) .

وقد أكد هذا المعنى عند تفسيره لآية : (الاسراء 20) وهي قوله تعالى : « كلا نمد هؤلاء وهؤلاء من عطاء ربك وما كان عطاء ربك محظورا » .

فقال : " وقد أفادت الاية : ان أسباب الحياة والعمران بسبب بلغ باذن الله إلى مسببه سواء أكان برا أو فاجرا ، مؤمنا أو كافرا وهذا الذي أفادته الآية الكريمة مشاهد في تاريخ المسلمين قديما وحديثا فقد تقدموا حتى سادوا العالم ، ورفعوا علم المدنية الحقة بالعلوم والصنائع لما أخذوا بأسبابها كما يأمرهم دينهم وقد تأخروا حتى كادوا يكونون دون الأمم كلها بإهمال تلك الأسباب ، فخسروا دنياهم وخالفوا مرضاة ربهم وعوقبوا بما هم عليه اليوم من الذل والانحطاط ولن يعود اليهم ما كان لهم إلا إذا عادوا الى امتثال أمر ربهم في الاخذ بتلك الأسباب"(2)

ثم ان من المبادئ الاجتماعية التي تستفاد من حديث القرآن عن القرون الأولى : أن هلاك الأمم لا يحدث الا بأسباب موضوعية ، وقد جاءت الاشارة الصريحة الى هذا في قوله تعالى : « وما كان ربك ليهلك القرى بظلم وأهلها مصلحون»(3) .

---

(1) إبن باديس : مجالس التذكير :82 .

(2) إبن باديس : مجالس التذكير : 90 .

(3) هود : 117 .

إن ظاهر النظم يفيد : أنه ليس من سنة الله في الاجتماع البشري أن تهلك الأمة من غير أسباب معقولة ، ومعنى ذلك لو عملت كل أمة بكل ما في الاستطاعة على أن تحافظ على وجودها وعلى توجيه مردودوها الحضاري بما يعود عليها بالخير والنفع وسعت جاهدة الى أن تتخلص مما قد ينشأ فيها من مظاهر التحلل والانحلال وما كان لها أن تتعرض للهلاك أو لما شابهه كفقدان اعتبارها بين الامم .

ومعنى هذا أن القرآن قد أوكل مسؤولية المحافظة على البقاء إلى الامة وما بداخلها من أفراد رجالا ونساء ، وقد علق محمد رشيد رضا على الاية بقوله : " وما كان من شأن ربك وسنته في الاجتماع البشري أن يهلك الامم بظلم منه لها في حال أهلها مصلحين في الأرض ، مجتنبين لفساد ، والظلم وانما أهلكهم ويهلكهم بظلمهم وإفسادهم " (1) .

وقد ذكر في الآية وجها آخر : وهو أنه ليس من سنته أن يهلك القرى بظلم يقع فيها مع تفسير الظلم بالشرك ، واهلها مصلحون في أعمالهم الاجتماعية والعمرانية .وأحكامهم المدنية ، فلا يبخسون الحقوق كقوم شعيب ولا يرتكبون الفواحش ، ويقطعون السبيل ، ويأتون في ناديهم المنكر كقوم لوط ، ولا يبطشون بالناس بطش الجبارين كقوم لوط ولا يبطشون بالناس بطش الجبارين كقوم هود ، ولا يذلون لمتكبر جبار كقوم فرعون ، بل لابد أن يضموا إلى ظلم الشرك ظلم

(1) محمد رشيد رضا : تفسير المنار : 192/11 .

الفساد والإفساد في العلاقات ، والمعاملات ، والأحكام و وهذا هو الظلم المدمر للإجتماع ، ومن هنا قيل : " إن الأمم تبقى مع الكفر ولا تبقى مع الظلم والجور " (1) .

ومن ذلك نستخلص :

أن المكاسب الحضارية مرتبطة بأسباب موضوعية ، عادلة ، ولا علاقة لها ألبتة بمسألة لإيمان ، والكفر لأن من سنن الله في هذا الوجود : أن محتويات الكون : لا تنفتح خزائن خيراتها الحضارية بقراءة عزائم ، ولا بمفعول الكلمة السحرية : (إفتح ياسمسم) ، وإنما لا تعطي ثمارها إلا للأمم التي توجهت بكل استطاعتها للواقع والتي خططت بعزم لتكون قوية ، مهابة بإتباعها المناهج العلمية الصحيحة ، وتطبيقها لقانون الأسباب والمسببات الذي لا يتخلف .

إن القوة المادية تعني البقاء ، والهيبة ، ولاإعتبار ، ولا تنزل القوة من السماء ، ولا تأتي من الفراغ ، وإنما القوة قوة العمل، وقوة الإنتاج وقوة المال ، وقوة العلم وقوة حسن التوظيف وحسن التوزيع ... وإعطاء الفرص للجميع .

إن بلدانا ، أو أراضينا ، قد أعطت خيراتها الغزيرة لما كنا ولا زلنا نسميهم (بالمستعمرين) لما اعتنوا بها ، وخدموها بجد ، وحرص ، ودراية ، وتشجيع ، وبخلت علينا إلى الحد الذي تأزمت فيه سياستنا ، وكسد فيه اقتصادنا ، وتعقدت فيه أخلاقنا ونحن أبناؤها لما لم نعطها العمل الذي تتطلب ،

(1) نفس المراجع :193/11 .

والحرص الذي تستحق ، والعناية التي ترغب ولم تنظر أبدا إلى أننا أبناؤها الشرعيون ، وإلى أن الآخرين مغتصبون .

وليس غريبا أن نخطئ ، وأن نتعثر ، ولكن الغريب أن لا ننتبه ، وألا نعترف بالخطأ ، وألا نعمل بكل ما لدينا لأن نتدارك ، إن توحيد الصفوف ، والإستماع لبعضنا ، والتقريب من أفكارنا ، يمكننا من النهوض متضامنين ، متعاونين لتوفير ما يحتاج إليه اجتماعنا من أمن غذائي ، وسكني ، ووجداني ، وأدبي ، وثقافي ، وتعاملي .

أساسيات المهمة الحضارية .

من خلال ما أجملنا مما يرتبط بوظيفة الإنسان التعبدية ، واعتبارا لما أوجزنا مما يتصل بالتفسير القرآني للتاريخ من أن الإنسان هو المسؤول على صياغة الواقع التارخية ، واعتمادا على ما علمنا من أن لله سننا اجتماعية لابد من تقديرها حق قدرها ، يمكن لنا : أن نحدد الأسس التي يقام عليها العمل الحضاري الذي ينفع الناس فيما يلي :

أولا : الإنسان

بين القرآن أن الإنسان متميز بمؤهلات إدراكية ، ومتمتع بقدرات نفسية ومادية ومعنوية هائلة تجعله في مستوى قيامه بالخلافة ، غير أن هذه المشؤولية الثقيلة ، لا تتحقق إلا بالعلم الراسخ ، والمواجهة الصابرة ، والنشاط الحثيث ، والضرب في الأرض ، والمشي في مناكبها والتجول في أرجائها ، واتبغاء ما فيها من نعم ومتع ، وخيرات ، ولا ينهض بهذا كله إلا مجتمع متماسك ، متضامن ، متعاون ، يسعى أفراده ، ومؤسساته

العامة ، والخاصة إلى التحرر من لقعود مصداقا للآية الكريمة : " إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغير ما بأنفسهم " (1) .

إن الوظيفة الحضارية لا يقوم بها إلا الأمة التي يكون أفرادها رجالا ونساء على قدر كبير من الوعي ، والنضج ، والإسلام باعتباره مهمة إيمانية ، وتعبدية واجتماعية وحضارية قوة هذه الأمة يوحدها ، ولا يفرقها ، ويجمعها ولا يشتتها ، ويدفعها إلى التعاون على جلب المنافع ، ودرء المفاسد ، ويحضها على التضامن في السراء والضراء ، ويحرضها على التخلص مما ورثت من معوقات بالية نشأت في عهد الإنحطاط، وكل هذا ليس بعزيز ، إذا وجد العزم والتوكل ، والتعلم ، ونبذ الكسل ، والخمول والتشرذم .

ثانيا : العبادة .

إن العبادة المتركزة على الهداية القرآنية والحكمة النبوية بما فيها من عقيدة إيمانية نقية ، وأعمال تعبدية ، وشريعة قويمة تحوي ضوابط مدنية ، ومبادئ أخلاقية واعتبارات تربوية بعد إلى جانب كونها طاعة وامتثالا ، زادا تربويا هائلا ، ويصنع العجائب كما صنع من قبل إذا تناوله المربي الماهر ووظيفه توظيفا حسنا بتلاؤم ، ومقتضيات العصر والحداثة .

إن بهذه التربوية الإسلامية المعاصرة ، تصان المكاسب الحضارية وتحفظ المنتوجات العلمية ، والثقافية والإقتصادية ، والجمالية ، والعمرانية عموما ، وتسخر خيراتها لإسعاد الناس

---

(1) الرعد : 11 .

وإراحتهم ، وأمنهم ، بقائهم ، فالعبادة في نظر القرآن والواقع إحياء للحياة وتربية لإنسانية الإنسان ، وترشيد لحضارته ، ولما قدمت ، وكسبت يداه .

ثالثا : الوجود .

إن القرآن قد اعتبر الوجود ميدانا مسخرا لإقامة البناء الحضاري والعمراني ، فكل ما في الأرض من محيطات ، وبحار وأنهار وبحيرات ، ومن جبال ، وتلال ، وهضاب ، ومن سهول ، وأنجاد ، وصحار رملية وثلجية ، وما في باطنها من مواد منجمية : معدنية وعضوية ، ومائية وما يحيا عليها من نبات ، ومواش ، وأنعام ، ووحسيات ، وما يحيط بها من طبقات جوية وما تمدها به الكواكب السيارة من تأثير وطاقات ، فكل ذلك إمكانيات طبيعية لا تقدر قيمها ، ولا تحصى منافعها .

ولكن من سنن الله فيها : أن تهب إلا بعد جهد ، ولا تمنح إلا بعد إرادة ، وعزم ، وصبر وإصرار .

فبالمعرفة ، والدراسة والتخطيط ، والتحدي الطموح تنصاع الكونيات وتصبح طائعة مطواعة ، تجود بالمنافع ، وتعطي ما عندها من أسباب القوة واليأس ، وتمد ما في حوزتها من دواعي النمو ، والتقدم ، والإزدهار ، وما تملك من الحوافز القادرة على أن تعيد للأمة اعتبارها وشخصيتها المتميزة بين الأمم حتى تكون كما كانت من قبل خير أمة أخرجت للناس فعلا وواقعا .

رابعا : الوقت .

إن الزمن مهم ، والإحساس به ضروري لأنه الحيز الذي

يتسغرقه ما ينشأ عن إرادة الإنسان من عمل الجوارح ، فما من فعل إلا إحتاج إلى زمن ، وما من مشروع إلا تطلب وقتا ، وما من حدث عظيم إلا استلزم مذة تتناسب وعظمته ، حتى إن طول الوقب بالنسبة لمن يقدرون الوقت حق قدره يعد من المؤشرات الدالة على قيمة ما يعمل فيه ، وتقدير الوقت في موازين القرآن إنما هو خاضع لما يقع في خيزه من عظيم الأحداث ، وجلائل الأعمال ، ومن هنا اعتبرت ليلة القدر ذات عظمة فوق التصور ، والإدراك لعظمة ما قدر أن يحدث فيها ، فكانت خير من ألف شهر لعظمة ما تقرر فيها من نزول القرآن ، وبذلك، كان الإحتفاء بالقرآن أو احتفاء بما أحدثه وأحدثته مضامينه في دنيا الناس من تغييرات وإصلاحات .

وقد أقسم الله تعالى به في قوله " والعصر إن الإنسان لفي خسر " (1) على الرأي الذي يجوز أن يكون معنى العصر الزمان (2) تعضما لشأنه وقد جاء عن إبن عباس ما يفيد بأن العصر هو الدهر ، وأن الله قد أقسم به لما في مروره من أصناف العجائب (3) ، وقد اعتبر النبي صلى الله عليه وسلم الزمن في قوله : " نعمتان مغبون فيهما كثيرا من الناس : الصحة والفراغ " (4) وقد علق إبن باديس على نعمة الفراغ

---

(1) العصر : 1 -2 .

(2) إبن عاشور : التحرير والتنوير : 53/3 .

(3) أبو حيان : البحر المحيط : 509/8 .

(4)

بقوله : " وعمر الإنسان أنفس كنز يملكه ، ولحظاته محسوبة عليه وكل لحظة تمر معمورة بعمل مفيد ، فقد أخذ حظه منها ، وربحها ، وكل لحظة تمر فارغة فقد غبن حظه منها وخسرها(1)، ومما يدل على أن للزمن دوره الفعال على الرغم من كونه لا يتحمل مسؤولية ما يحدث فيه ، ما نلاحظه مما حدث في تاريخ " النبوة المحمدية " من اعتبار للوقت ، ومن تقدير لمدته ، تبعا لتقدير قيمة العمل الذي يقع فيه .

وإذا نظرنا إلى الهجرة من مكة إلى المدينة باعتبارها مرحلة هامة في تطور مسار الدعوة الإسلامية نلاحظ : أنها كانت تهدف إلى نصرة الدين عموما ، وذلك بتجميع القوى الإيمانية ووضعها في " أرض قاعدية " حتى تكون في المستوى اللائق من حيث القدرة على إستئصال ما استحكم من إنحرافات ، ومن حيث الصمود في وجه العدوان ، وتضييق الخناق على " الإستبداد " ونرى : أنها كانت تسعى في نفس الوقت إلى إقامة المجتمع الذي سيعمل على تجسيم ما يتطلبه " التغيير " من مظاهر اعتقادية ، وشعائر تعبدية وعلى ممارسة ما يتلائم معها من أنماط حياته ، ونظم اجتماعية بكل حرية .

إن حدثا كهذا يحمل ثقل تلك المسؤليات ، لم يقع الإفصاح عن إمكانية وقوعه إلا بعد عشر سنوات ، ولكن تلك العشرة المكية على الرغم من بطء سير العمل الذي حصل فيها ، تعد ذات إيجابية معتبرة بالنظر إلى ماتم فيها من هجر للرجز هجرا

(1) ابن باديس : مجالس التذكير من حديث البشير النذير : 137 .

جميلا ، وما وقع فيها من إعداد الرجال والنساء وإعداد محمما، إذا تعلم المعتنقون في تلك الفترة الإيمانية والعمل ، وتدربوا على تحمل الأذى ، وتعودوا على معايشة الصبر في الشدائد .

ثم إذ نظرنا إلى عملية تنفيذ (الهجرة) ، نتبين : أنها لم تقع إرتجالا ، بل قد تم إنجازها على مراحل (1) حسب تخطيط محكم وكانت كل مرحلة أكثر نتائج إيجابية من التي سبقتها ، وقد استغرقت عملية التنفيذ مدة ثلاث سنوات ثم إذا وضعنا في اعتبارنا أن أول مواجهة مادية حاسمة لم تحصل إلا بعد سنتين تقريبا أي بعد حمس عشرة سنة من عمر (النبوة) علمنا أن قرابة 70٪ من زمن النبوة قد استهلك في الإعداد الصامت والتأسيس الرصين ، والبناء المحكم البطيئ ، والسمو التصاعدي المطرد .

ومن هنا نعلم أن العمل العظيم إنما يحتاج إلى الوقت الطويل وأن تغيير ما " بأنفس الناس " وتحرير ذهنياتهم مما استحكم من العادات وتحويلها إلى عقليات علمية فاعلة ، لاتتعامل مع أشياء الوجود إلا وفق سلطان أتاها ، والدعوة إلى استبدال الذي هو خير بالذي هو أدنى عمل ليس بالهين ، ولا يمكن أن يتحقق بين عشية وضحاها ، بل يستلزم إتباع طرق حكيمة ، ويستوجب تدرجا مرحليا مدروسا ، ويتطلب نفسا طويلا ،

---

(1) بيعة العقبة الأولى في السنة الحادية عشر ، بيعة العقبة الثانية في السنة الثانية عشر ، بيعة العقبة الثالثة في السنة الثالثة عشر .

لايعتريه ضيق ولا ينتابه اختناق ، ومن أخطر سلبيات أوضاعنا الراهنة : أن رؤيتنا لمستقبل أمتنا لم تتضح بعد ، وأن هدفنا العام لازال ضبابيا على الرغم من إجادتنا للخطب البليغة الرنانة ، ونظمنا الجمل البديعة الموزونة وسبكنا للمقامات السجعية المطاطة ، ومن أفدح ما فينا سواء كنا أفرادا أو جماعات ، أو قمما وقواعد ، أننا لا نعطي أهمية للزمن ولم يقرده حق قدره ، فكثير من الأوقات نستهلكها هدرا ، وكثير من المراحل نستعجلها ونستحث نتائجها ، فيأتي المردود حقيرا يثبت تقافتنا ، ويؤكد أننا مازلنا قبل بداية الانطلاق في الوقت الذي طلبنا ، وزمرنا ، وصفقنا ، وزغردنا إعلانا عن بلوغنا نهاية المشوار ، وافتخارا بما نلنا من فوز .

ومهما كانت الحال فالمهم أن الحضارة لا يكون أصلها ثابتا وفرعها في السماء إلا إذا كانت حصيلة مجموعة العناصر الأساسية التالية : إنسان خبير طموح + رصيد تربوي فعال + وجود مسخر متاح + وقت معتبر محسوب .

مدى تقدير الحضارة الغربية للإساسيات الأربع

إذا تأملنا واقع الحضارة الانسانية الغربية نلاحظ : انها اعتمدت بحق على الانسان الخبير الطموح ، والكون المسخر المتاح والزمن المعتبر المحسوب ، وقد استطاعت بذلك أن تنتج العجب العجاب الذي أثبت بصورة فعلية أن للانسان مؤهلات فاعلة فائقة ، وأن في الوجود خيرات لا تحصى ، ونعما لا تقدر ، وأن الانسان خليفة في الأرض حقا وأنه سلطانها المتصرف فيها عن جدارة .

ان هذا المردود الحضاري عظيم ، ورائع ، ولا ينكر عظمته إلا من فقد أهلية التمييز ، ولا يحط من شأنه إلا من كان خلوا من ملكة التقدير ، وقد أدى عظم هذا المردود الحضاري الى الاستيلاء على كافة المناطق العربية والاسلامية . " فقد احتلها الغرب لا بمفعول الجيش المسلح ، ولكن بسلاح وحيد يتمثل في معارفهم العلمية المجسمة في البلادان المولى عليها بالخطرط السلكية ، والحديدية ، وغيرها مما يعسر عده (1) .

ولكن هذه الحضارة الغربية على الرغم من أنها قد ساهمت مساهمة فعالة في تحويل الإنسان ، وترقيته ، وتمدين نمط حياته ، بإهمالها لأكثر من سبب الأساس المتمثل في التعبد الترشيدي أو الوازع الواقعي ، فقد زادت ف تنمية مالدى الإنسان من وحشية فقد أوجدت للحروب مسوغات ، وأحدثت للجرائم مبررات ، الأمر الذي يؤدي في كثر من الحالات إلى تدمير المكاسب الحضارية ، والقضاء على إنسانية الإنسان في حين أن الحضارة الحق لا قيمة لها إذا كانت على حساب إنسانية الإنسان .

على كل ، فإنهم وإن أهملوا جانبا مهما أساسيا ، فقد أهملنا نحن الجوانب كلها ، فقد فقدنا الإنسان الخبير الطموح ،

---

(1): homa pakdaman - djamel - ed-din , dit Afgani: p 75 . les Europeens viennent d'occuper de multiples territoires, non point à l'aide de l'armée, mais a l'aide d'une seule arme, leurs connaissances scientifiques, cocretisees dans les pays conquis par des lignes telegraphiques, les chemins de fer, les relations postales, etc (41) .

أو قل : لم نهيئ الجو الملائم ليكون كما يريد ، وفقدنا الرصيد التربوي الفعال ، وأغمضنا أعيننا عن الوجود المسخر المتاح ، وأضعنا الوقت في تنميق الكلام وتفخيمه ، وغفلنا من الفعل الفعال حتى صار حالنا هشا ، تحكمه الغوغائية والإرتجال .

ومن دلائل تخلفنا : أننا أكثر الأمم حديثا عن الأخوة ، ونحن أبعد الناس عنها واقعا ، وأكثر الأمم حديثا عن العلم ونحن أبعد الناس عن العلم الذي يفيد الناس وينفعهم فقد أشار الأفغاني في معرض الحديث عن التخلف العام الذي تردى فيه المسلمون : أنهم يسهرون متربعين أمام مصباح بترولي لدراسة كذا وكذا كتاب ، ولكن لم يدر يخلدهم أبدا ، ولو مرة واحدة : لماذا يشتغل المصباح لما يرفع عنه غطاءه وينطفيئ لما يكون مغطى (1) .

وطبعا ، ليس في هذا تشاؤم أو يأس ، بل إن التفاؤل الحق في ذكر الواقع ، والمهم أنه لا يمكن أن نخرج من سلبياتنا إلا إذا أعطينا أساسيات الحضارة حقها ، وليس ذلك بعزيز علينا إذا أوجدنا المناخ الملائم لكفاءاتنا وعملنا علي توظيف قدراتنا التوظيف الحضاري اللائق .

---

(1) meme source precedente:
les musulmans " veillent accroupis devant une lampe à petrole pour étudier tel ou tel livre " mais il ne leur vient jamais à l'idée de se demander une seule fois : " pourquoi cette lampe fume t - elle quand on lui ote son couvercle et pourquoi cesse - t - elle de fumer quand elle est couverte ?".